القصص الديني

الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

أبو بكر
يقاتل مانعي الزكاة

عبد الحميد جودة السحار

٢

بسم الله الرحمن الرحيم

« خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم
وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا » (قرآن كريم)

١

كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ، يرى تَوْطيدَ سُلطانِ المسلمينَ على حُدودِ الشّام ، فقد بلغه تفكيرُ الرُّومِ الّذينَ كانوا يحكُمون الشّامَ، في مهاجمةِ المُسلمين ، وقد أرْسلَ لِقتالِهِم جيشاً بقيادَةِ زيدِ بنِ حارثَة ، وقُتِلَ قُوّادُ هذا الجيْش ، فخرجَ النّبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلَّم لِقتالِ الرُّوم ، وسارَ حتّى بلغَ تَبُوك ، ولكنَّ الرُّومَ لم يقابلوه ، بَلِ انسحبوا إلى داخلِ بلادِهِم ، فلمّا أتمَّ النّبيُّ حجّةَ الوداع ، أمر بتجهيزِ جيشٍ للخُروجِ إلى الشّام ، وأمّر على الجيْشِ أُسامةَ بنَ زيد .

كان أُسامَةُ في العشرينَ من عمره ، وكان في جيشِهِ أبو بكرٍ وعمرُ وكبارُ الصّحابَة ، وقبل أن

يسيرَ جيشُ أُسامَة ، مات رسولُ الله ، وأصبحَ أبو بكرٍ خليفةَ رسولِ الله ، فدخل النّاسُ عليه ، وقالوا له :

– إنَّ الأمورَ قد تبدَّلَتْ بعدَ موتِ الرّسول ، ولا يعلمُ أحـــدٌ ما يستجدُّ من الأُمورِ إذا بلغ القبائلَ خَبرُ موتِ محمّد .

فقال أبو بكر :

– والّذى نفسُ أَبى بكرٍ بيدِه ، لو ظننْتُ أَن السِّباعَ تَخْطِفُنى ، لأنفذتُ بعثَ أُسامَة ، كما أمر به رسولُ الله ، ولو لمْ يبْقَ فى القُرى غيرى لأنفذْتُها .

وقال أُسامةُ لِعُمَر :

– ارْجِـعْ إِلَى خليفةِ رسولِ الله ، فاستأْذِنْه لى أن أَرجِـعَ بالنّاس ، فإنَّ مَعى وجوهَ النّاسِ وحدَهم ، ولا آمنُ على خليفةِ رسولِ الله وعلى

المُسلمينَ أن يتخطَّفَهمُ المُشرِكون .

وسار عُمَرُ ليدخُلَ على أبي بكر ، فجاءَهُ الأنصارُ وقالوا له :

- إنْ أَبَى إلاَّ أَنْ تَمْضِي ، فأبلِغْه عنا ، واطلبْ إليه ، أن يُوَلِّيَ أمرَنا رجُلاً أقدمَ سِنًّا من أُسامَة.

دخل عُمَرُ على أبي بكرٍ ، وقال له :

- أُسامةُ يستأذِنُ أن يرجِعَ بالنّاس.

فقال أبو بكرٍ في عَزْم :

- لو خَطِفَتْنِي الكِلابُ والذِّئاب ، لا أرُدُّ قضاءً قضى به رسولُ الله :

فقال عُمَرُ :

- الأنصارُ يطلُبون أن تُوَلِّيَ رجلاً أقدمَ سِنًّا من أُسامة .

فثارَ أبو بكرٍ وغَضِب ، ووثبَ على عُمَرَ الّذي

كان الناس يخشَوْنَه ، وجذَبه من لِحْيَتِه جَذْبةً شديدة ، وصاح فيه : ثَكِلَتْكَ أُمُّك وعدِمَتْكَ يا بنَ الخطَّاب ، استعمَلَهُ رسولُ الله ، وتأمُرنى أنْ أنزِعَه ؟!

وخرج عمرُ إلى النّاس، فأسرعوا إليه يسألونه:

— ماذا فعلت ؟

فصاح فيهم : امضُوا ثَكِلتْكُم أمّهاتُكم ، ما أشَدَّ ما لقيتُ فى سبيلِكم من خليفةِ رسولِ الله .

٢

نُفِخ فى البُوق ، فجاء المُسلمونَ ليخرُجُوا فى جيش أُسامَة ، وجاء عمرُ بن الخَطّاب ، فقد كان جُنديّاً فى هذا الجيش ، وأقبلَ أُسامَة راكباً جوادَه ، وجاء أبوبكرٍ يسيرُ على رجلَيه ، فلمَّا رآهُ أُسامةُ ،

همَّ بأنْ ينزلَ عن جوادِه ، فأشارَ له أبو بكرٍ أن يبقى فقال أُسامة :

– ياخليفةَ رسولِ الله ، والله لتَركبَنَّ أو لأَنزلَنَّ .

– واللهِ لا تنْزلَنَّ ووالله لا أركب، وما عليَّ أنْ أُغبِّرَ قدميَّ في سبيلِ الله ساعة ، فإنَّ للغازي بكلِّ خَطوةٍ يخطوها سبعمائةِ حسنةٍ تُكتبُ له ، وسبعمائةِ درجةٍ تُرفَعُ له ، وأن تُرفَعَ عنه سبعُمائة خطيئة .

لقّن أبو بكرٍ الجنودَ الّذينَ تحتَ إمرةِ أُسامةَ درسًا في احترامِ القائد ، وأرادَ أن يلقّنهم درسًا آخرَ في توقيرِه ، فقال لأُسامة :

– إنْ رأيت أن تُعينَني بعمرَ فافعلْ .

لم يأمُرْ أبو بكرٍ ببقاءِ عمرَ معه في المدينة ، وهو الحاكمُ النّاهي ، بل استأْذنَ قائدَ الجيشِ في بقائِه

معَه ليُعينَه على أمورِ المسلمين، فرسَم لكبارِ الصَّحابةِ طريقةَ مُعاملةِ قائدِهم ، وإنْ كان في العشرينَ من عمرِه، علَّمهم أن يحترِموه ، وأنْ لا يستخِفَّ به أحد .

أشار أُسامةُ بيَدِه لعمرَ بن الخطَّاب ، فخرج من بينِ الصُّفوف . وأشارَ أبو بكرٍ لجيشِ أُسامةَ بيده ، وقال :

– اندَفعوا باسمِ الله .

وخرج جيشُ أُسامةَ قاصدًا الشّام .

٣

فرَض الإسلامُ على المسلمينَ الزَّكاة ، وكان النَّبيُّ يُرسلُ رجالاً يجمعونَها من القَبائل ، فكانتِ القبائل ، تدفعُ لهُم الزَّكاة ، فتُحمَلُ إلى المدينة ، ويقومُ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بتوزيعِها على الفقراءِ والمساكين ، ويُعتَقُ بها العبيد ، ويُنفَق منها

على الدّولة . فلما ماتَ رسولُ الله ، جاءتْ وفودُ القبائلِ إلى المدينة ، وعرضوا على أبِى بكرٍ أنْ يُصلّوا ، وأن لا يدفعوا الزّكاة ، فرفض أبو بكرٍ هذا العَرْض ، لأنَّ الزّكاةَ ركنٌ من أركانِ الدّين ، وعزم على أنْ يقاتلَهم حتى يؤدّوا الزّكاة ، فقال له عمر :

– كيفَ تقاتلُ النّاس ، وقد قالَ رسولُ الله صلّى اللهُ عليه وسلّم : « أُمِرتُ أن أقاتلَ النّاسَ حتى يقولوا : لا إلهَ إلاّ الله ، فمنْ قالَها ، فقد عصَمَ منّى ماله ونفسَه ، إلاّ بحقّه وحسابه على الله » .

طلب عمرُ منه أن يتركهم وما همْ عليه من منعِ الزّكاة ، ويحبّبَهم فى الإسلام ، ثمّ هم بعدَ ذلك يزكون ، فقال له أبو بكر :

– أجبّارٌ فى الجاهليّة ، خوّارٌ (ضعيف) فى

الإسلام ؟ إنه قد انقطع الوَحْىُ وتمّ الدِّين ، أوَ ينقُصُ وأنا حيّ ؟ والله لأُقاتلَنّ من فرّق بينَ الصَّلاةِ والزَّكاة ، فإنّ الزكاةَ حقُّ المال ، والله لو منعونى عناقاً (عَنْزا) كانوا يُؤدّونَها إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ، لقاتلتهم على منعِها.

وعادتِ الوُفودُ إلى قبائلِها ، وقد بانَ الغدْرُ فى الوجوه ، فجمع أبو بكرٍ كبارَ الصَّحابةِ ، وقال لهم :

– إنّ الأرضَ كافرة ، وقد رأى وفدُهم قِلّة ، (بعد خروج جيشِ أسامَة) ، وإنّكم لا تدرونَ أليْلاً تُؤْتَوْنَ (أى تُغزَوْنَ) أو نهارا ، وقد كان القومُ يأمُلونَ أن تقبَلَ منهم ونوادِعَهم ، وقد أبيْنا عليهم ، فاستَعِدُّوا وأَعِدُّوا .

ولبسَ المُسْلمونَ عُدّةَ القِتال واستعدُّوا للدِّفاع عن المدينَة ، وخرج عليُّ بنُ أبى طالب ، والزُّبيرُ

ابنُ العوّام ، وسعدُ بنُ أبي وقّاص ، ونفرٌ من المُسلمين لحمايةِ مشارفِ المدينة ، وبَقِيَ سَائِرُ المُسلمينَ مُدجَّجين بالسِّلاح ، على استعدادٍ للقِتال ، إذا ما فكَّرَ أحدٌ في مداهمتِهم .

وتحرّكتِ القبائلُ المجاورةُ قاصدةً المدينة ، وبلغ الخبرُ أبا بكر ، فخرج بالمسلمين ، ليدافعَ عن دينِ الله ، رأى أنْ يَهجُم على العدوِّ في اللّيل ، قبل أن يهجُم عليه العَدُوُّ بالنَّهار ، فسارَ في اللّيل ، حتَّى بلغ مُعسكَرَ الأعداء ، وانقضَّ المسلمونَ على أعدائهم ، وراحوا يُعمِلونَ السُّيوفَ فيهم ، حتَّى هَرَبوا ، فسارَ المسلمونَ وراءَهم .

كان الأعـداءُ قد تركوا مَدَدًا من الرِّجالِ خلفَهم ، فانضمَّ المَدَدُ إلى الهاربين ، ووقَفُوا في وجهِ المسلمين ، ودار القتالُ شديدًا رهيبًا في اللّيل .

وأحسَّ المسلمون رواحلَهم تتقهقرُ مرعوبَة ، وظلَّتْ تتقهقر ، فقد جاء الأعداءُ باوعيةٍ من جلودٍ نفخوها وربطوها بالحِبال ، وضربوها بأرجلِهم فى وجوهِ إبل المسلمين ، فخافتِ الإبل ، واستمرتْ فى تقهقرِها حتى دخلتِ المدينة .

ونامَ الأعداءُ تلكَ الليْلة ، حسِبوا أنهم انتصروا على المسلمين ، ولكنَّ المسلمينَ لم يذوقوا للنَّومِ طعما ، وراحَ أبو بكرٍ يستعدُّ لمعاوَدةِ الهجُوم قبلَ أن تطلُع الشَّمس . وسار أبو بكرٍ مرَّةً ثانيةً إلى الأعداء قبل الفجر ، فرآهم نائمين ، فهجم المسلمونَ عليهم ، وراحوا يقتُلونَهم ، فقاموا من نومِهم خائفين ، وهربوا مرعوبينَ مهزومين .

وانتصر أبو بكرٍ على الّذين جاءوا يُرغمونه على أن يقبلَ مبـــدأ عدمِ دفع الزَّكاة ، فخافَتِ

القبائلُ منه ، وجاء المسلمون من مختلِفِ القبائل إلى المدينةِ يحملونَ الزّكَاةَ ، وعاد جيشُ أسامةَ إلى المدينة ، فقويَ المسلمونَ به ، وكانتْ بعضُ القبائلِ قد تركَتِ الإسلامَ بعد موتِ النّبيّ ، وكانَ بعضُ الكذّابينَ قد ادَّعوا النُّبوّة ، فرأى أبو بكرٍ محاربةَ الّذين ارتدّوا ، فكوّنَ أحدَ عشرَ جيْشا لقِتالِهم ، وخرجَتِ الجُيوشُ لقتالِ مدّعى النُّبوّة وأتباعِهم ، لرفعِ الرّايةِ الإسلاميّةِ على بلادِ العربِ جميعِها ، كما كانتْ مرفوعةً موفورةَ الكرامة ، قبلَ موتِ الرّسول .

٤

ادّعى مُسَيلمةُ النّبوّة ، فلم يصدّقْه من قومِه خلقٌ كثير ، فقد كان ضئيلَ الجسم ، أصفرَ اللّون ، لا هيبةَ له ، ولا يبعثُ مظهرُهُ على الاحترام ،

وقد ادَّعى النُّبوَّة فى أيَّام النَّبىِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، فبعث النَّبىُّ إلى أهلِ اليمامة – قومِ مُسيلمَةَ – من يعلِّمُهم دينَهم ، وكان هذا الرَّجلُ الَّذى أرسله محمدٌ هو « نهار الرِّجال » .

رأى نهارُ الرِّجال أنْ يخونَ الأمانة ، وأن ينضمَّ إلى مُسيلمَة ، وأن يتَّفِقَ معه ، فهو بهذا يستطيعُ أن يكسِبَ الدُّنيا ، وإنْ خسِرَ الآخرة ، فانضمَّ إلى مُسيلمَة ، وقال للنَّاس :

– إنَّ محمَّدًا يقولُ : إنَّ مُسيلمَة قد اشتركَ فى الرِّسالة .

وصدَّق أهلُ اليمامةَ « نهارًا الرِّجال » وكان سُرورُهم عظيما ، فمنهم نبىٌّ ومن قريشٍ نبىٌّ ، ولم يفطَنُوا إلى أنَّ مُسيلمَةَ كذَّاب ، وأن « نهارًا الرِّجال » خائنٌ باع آخرتَه بدُنياه .

وماتَ النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم ، فأرسلَ أبو بكرٍ إلى مُسيلمَةَ جيشا ، بقيادةِ عِكْرِمةَ بنِ أبي جهْل ، ولكن عِكرِمَةَ هُزِمَ ، فأرسلَ أبو بكرٍ جيشاً آخرَ بقيادةِ خالدِ بن الوليد ، قائدِ الإسلامِ الأوَّل ، وسيفِ اللهِ المسلول .

سار جيشُ خالد ، حتَّى وقفَ جيشُ خالدٍ وجيشُ مُسيلمَةَ وجهاً لوجه ، وقد امتلأتِ الصُّدورُ حماسة ، فالمسلمون يُدافعونَ عن دينهم ، وأهلُ اليمامةِ عن نبيِّهم الكذّاب ، ودارتْ رحَى المعركة رهيبة ، فلم يثبُتِ المسلمونَ وتقهقَروا ، وساءَ بعضَ ذوى الهِمَمِ العاليةِ أن ينهزِمَ المسلمون ، فعزَموا أن يثْبتُوا في الميْدان ، حتى يحكُمَ الله بينَهم وبينَ الفَجرةِ المُرتدِّين ، وثارتِ الْحَمِيَّةُ فيهم ، فانطلقَ زيدُ بنُ الخطّاب إلى نَهار الرَّجال ، وعاجله بضربةٍ فقتلَه

وشدَّد المسلمونَ التَّكبير ، وراحَ أتباعُ مسيلمةَ يَسقطونَ حولَه قتلى ، فرأى خالدٌ أن يسيرَ إلى مُسيلمةَ ليقتُلَه فتنتهى المعرَكة ، فهجم عليه وهوَ يصيح : « وامحمَّداه » ! وما بلغ صوتُه آذانَ المُسلمينَ حتى فارَتِ الدِّماءُ فى عروقِهم ، وأخذوا يُطيحونَ رءوس المخدوعينَ فى نبيِّهم ، ورأى مُسيلمة ضغطَ المسلمينَ عليه ، وطلبَ خالدٍ له ، فدبَّ الذُّعرُ فى نفسِه وفرّ ، وفرَّ من كانَ حولَه .

وصاح صائح : « إلى الحديقَة ... إلى الحديقَة » . فدخل القومُ حديقةً كانتْ لمسيلمة ، وكانتْ واسعةَ الأرجاء ، منيعةَ الجدران ، كأنَّها الحِصن ، وأُغلِق بابُ الحديقَة ، فراحَ المسلمونَ يتسلَّقونَ الجدران ، ويقاتلونَ الأعداءَ ، حتى فتحوا بابَ الحديقَة ، فتدفَّق المسلمونَ منه كالبحر ،

وقُتِلَ مُسيلَمة ، وقُتِل معه خلقٌ كثير .

وانتصرَ خالدُ بنُ الوليدِ على مُسيلَمةَ الكذَّاب ، وانتصرَتْ جيوشُ المسلمين ، وعادتْ إلى المدينَة ، فاستقبلَها أبو بكرٍ مسرورا ، فقد أعادَ للإسلام هَيْبَتَه ، وأقام دعائِمه ، وأرغمَ القبائلَ على أنْ تُؤَدّيَ الزَّكاة ، واستعدَّ أبو بكرٍ ليُرسِل الجُيوشَ لنشرِ دينِ الله ، وإقامَةِ أركانِه . وتوطيدِ بُنيانِه .